وكنْ لعليّ بهجةَ العرسِ انه بعزّكَ فى الافراح تمتْ مزاياهُ
ولا تنس من أمسَى يقلب طرفه فلم ترَ الا انت فى الناس عيناهُ

وانت ترى ان البيتين مع ما فيهما من تناقض واختلاف فقد شوّه الثانى منهما جمال الأول ومسخ بهجته ورواءه . وكان من سيئات هـذا البؤس كذلك أن اتخذ شعر حافظ هذه الناحية الهادئة المتواضعة واصطبغ بهذا اللون القاتم فجاء خالياً من حماسة البارودى وفخره ومن زهو شوقى وكبريائه .

ومن يدرى كيف كان يؤول مستقبل حافظ لو أتيح له من بلهنية العيش وسعادة الحياة ما أتيح لصاحبه ولوحِظَ بتلك العناية التى لوحظ بها زميله .

ولقد كان حافظ يغنى فى بؤسه ويرى أنه من الغبن أن يشترك معه غيره فيه . لهذا آثر ان يحتمله وحده . فلم يتخذ له صاحبة ولاولداً ، ومات ولم يعقب سوى كتابين فى النثر هما كما يقول عنهما خير ما أخرج للناس فى هـذا العصر ، وديوانه المطبوع فى ثلاثة أجزاء وهو حرى بالدراسة والتحليل — يقول شوقى رحمه الله فى تقريظه :

لا تسألوا الأصداف عما أودعتْ فى هذه الأوراق كلّ عجيبِ

تلك صفحة من تاريخ حافظ ، إنْ لم تكن قد استوعبت حياته فقد أضاءت أظلم ناحية فيها ، وكفى بها

طلبه محمد عبده

المرأة فى شعر حافظ

لاتُعرف لأمةٍ نهضةٌ شاملة اذا حُرِمَتْ المرأةُ نصيبها من التأثير فى المجتمع . ومقياس منزلة المرأة الإشادة بها واعلان فضلها ونفوذها . وقد تكون تلك الاشادة وذلك الاعلان بصور شتّى : كالدفاع عن حقوقها ، وكالتغنّى بمآثرها فى بناء هيكل الأمة ، وكالتغزّل بجمالها . فأين شعر حافظ من كل هذا ؟

لقد كان حافظ من مدرسة قاسم أمين المنتسبة الى بيئة الامام محمد عبده وهى

بيئة حرة مصلحة ، وحسبك من قاسم كتاباه عن « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ولذلك جاء شعر حافظ من أصوات الاصلاح العالية للمرأة فى غير تردد وإن كان فى اعتدال وتدبّر وحذر . أليس هو القائل مخاطباً قاسماً :

أقاسمُ إنّ القومَ ماتت قلوبُهم ... ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبُهْ
الى اليوم لم يُرفَعْ حجابُ ضلالهم ... فمن ذا تناديه ومَنْ ذا تعاتبُهْ ؟
فلو أنّ شخصاً قام يدعو رجالَهم ... لوَضْع نقابٍ لاستقامتْ رغائبُهْ !
ولو خطرتْ فى مصر حواءُ أمّنا ... يلوح محيّاها لنا ونراقبُهْ
وفى يدها العذراءُ يسفر وجهُها ... تصافح منّا مَنْ تَرَى وتخاطبُهْ
وخلفَهما موسى وعيسى وأحمدٌ ... وجيشٌ من الاملاكِ ماجت كواكبُهْ
وقالوا لنا : رفعُ النقاب محلَّلٌ ... لقلنا : نعم حَقٌّ ، ولكنْ نجانبُهْ !

وفى هذه الأبيات من التهكم اللاذع والسخرية بأنصار النقاب ما فيها . وقد لبث هؤلاء السادةُ مشغوفين بحوارهم ونقاشهم الى أن تولت المرأة نفسها الفصل بينهم ، فنزعت أخيراً نقابها فى غير تردد ، وفرغت من ذلك لتلتفت الى ماهو أهمّ — الى التعليم الجامعى ، وإلى استرداد حقوقها فى ادارة شؤون الوطن وفى اختيار نواب الشعب ، ثم فى الاشتراك فى المستقبل بتمثيله البرلمانى . وهذه الروح الطامحة المتوثّبة مدينة الى حافظ ابراهيم كما هى مدينة الى قاسم أمين .

ولحافظ فى الأمومة وفى منزلة المرأة الاجتماعية من روائع الشعر ما يجب ان تذكره بنات جنسى دائماً بالحمد والتقدير . أليس حافظ هو القائل :

مَنْ لى بتربية النساء فانها ... فى الشرق علةُ ذلك الاخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ اذا أعددتَها ... أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراقِ
الأمُّ روضٌ إنْ تَعهّدَهُ الحيا ... بالرىّ أورقَ أيّما ايراقِ
الأمُّ أستاذُ الاساتذةِ الأُلَى ... شغلتْ مآثرُهم مَدَى الآفاقِ
ليستْ نساؤكمو حُلىً وجواهراً ... خوفَ الضياعِ تُصانُ فى الأحقاقِ
ليستْ نساؤكمو أثاثاً يُقتَنَى ... فى الدُّورِ بين مخادعٍ وطباقِ

ربّوا البناتِ على الفضيلة إنها في الموقفين لهنّ خيرُ وثاقِ
وعليكمو أن تستبين نساؤكمْ نورَ الهُدَى وعلى الحياة الباقي

فهذه الأبيات نفثة مصلح حكيم ، ولكنه يصيح في بيئة متأخرة لا يستطيع فيها أن ينصف المرأة الا في حقوقها الأولية . وما أظنّ أنّ الحرب أفسحت أفق حافظ ، ولو كانت فعلت لكافح عن المرأة المصرية كفاحاً أعظم وحاول أن ينيلها من الحقوق ما نالته أختها الغربية وفي مقدمتها حق الانتخاب . لان المرأة المصرية الفلاحة كانت وما زالت أحصف وأبعد نظراً من الرجل الفلاح ، وهي المدبّرة الحقيقية للاسرة المصرية ، فهي أولى منه باستعمال الحق الانتخابي . ولم يكن حافظ ليفوته شيءٌ خاص بالمرأة فسجّل حركتها السياسية إبّان الثورة في نونيته المشهورة .

أمّا شعر حافظ الفني في المرأة فلا وجود له كأنما هو لم يعشق في حياته ، ومعنى هذا حرمان الأدب العربي كنزاً ثميناً من عواطف حافظ المقبورة . وقد قرأتُ له شيئاً من الشعر الغزلي بعضه موجّه الى المفرد المؤنث ومعظمه الى المفرد المذكر ، وكله فيما أعتقد من الغزل الصناعي المميت .

وأين هذا مما نشرته (أبولو) لناجي وأبي الوفا والصيرفي والشّابي ولأمثالهم من شعراء العاطفة ؟ وقد اعتاد بعضُ الشعراء مخاطبة المرأة بضمير المذكر توجيهاً بالخطاب الى « المحبوب » المتسامى عن كل صفة ، ومن الجائز أن يُحتَجّ عليّ بأن غزل المذكر في شعر حافظ هو غزل طبيعي في المرأة ، وقد تفرّستُ فيه تكراراً فلم ألمح ذلك فيه ، وانما كانت الصناعة تطلّ من كل بيتٍ من أبياته في حين أنّ أبيات ناجي التالية المذكرة الضمير نمّامة عن العاطفة الجياشة الموجهة الى المرأة ، وهي في قصيدته « المنسيّ » :

متى يرقّ الحظُّ يا قاسي ويلتقي المنسيُّ والنامي ؟ !
مَتى ؟ ! وهل من حيلةٍ في مَتى وفي خيالاتٍ وأحداس ؟
هَدّ قراري جَرْيُها في دمي وهَمْسُها في كَرّ أنفاسي !
وأنتَ مثلُ النجم في المنتأى وفي السّنا الخاطفِ كالماسِ
يرنو له الناسُ ويبغونه وما يُبالي النجمُ بالناسِ !

وانتَ كاسُ الحُسْنِ لكنّنا مثلُ حَبابٍ حامَ بالكاسِ
طفا ! وقد قبَّلَ أنوارَها ورفَّ مثل الطائرِ الحامى
وذاب أو جفَّ على نورها كما يذوب الطَّلُّ بالآسِ !

وأمّا أبو شادى فى أغانيه ودواوينه فموكّل بعبادة المرأة ، ومثله رامى فى غزلياته (ولا أقول فى أدواره العامية فهى ليست موضوع بحث) ، فكيف لم تؤثر المرأة فى فى شخصية حافظ هذا التأثير ؟ ولماذا لم تؤثر كذلك فى نفسية شوقى ؟ هذه خسارة فنية لاشك فيها ، ولكنْ مهما يكنْ من شىءٍ فالمرأةُ مدينة الى شعر حافظ بجميلٍ عظيمٍ ؟

زينب سليم